قطر على بحر الخليج العربي
رصد الزمن المفقود في التاريخ القديم
للدكتور / محمد حرب فرزات (*)

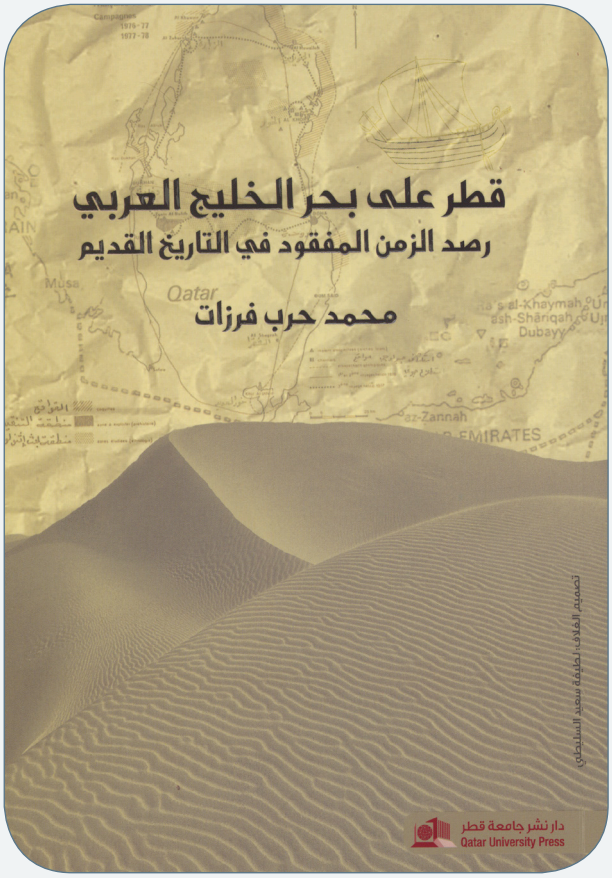

مراجعة: أ. د. عبدالله بن عبدالرحمن العبد الجبار

قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الملك سعود

Department of History - College of Humanities and Social Sciences - King Saud University

aajabbar@ksu.edu.sa

مجلة نصف سنوية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، يناير ٢٠٢٣م، السنة الأولى

مراجعات

يتناول الكتاب تاريخ قطر والخليج العربي والشرق الأدنى وحركة الكشوف الجغرافية منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث. ويتكون الكتاب من أربعة فصول وقائمة بالمراجع ومجموعة من الخرائط والصور.

وشمل الكتاب موضوعات متفرقة بحثت في تاريخ قطر والخليج العربي والمناطق المجاورة في الهند وإيران وسوريا والعراق، وتركز الاهتمام كثيرًا على تجارة الشرق الأدنى وتبادل السلع وحركة التبادل التجاري منذ العصور القديمة حتى القرن الثامن عشر الميلادي. وتتبع الكاتب الكتابات القديمة في بلاد الرافدين وسوريا، والكتابات الكلاسيكية والإسلامية والنقوش في مسعى لإثبات قدم تاريخ قطر.

فقد أشار الباحث في المقدمة إلى أهمية التركيز على تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية القديم وعدم إغفالهما عند دراسة تاريخ الشرق الأدنى والاقتصار على العصر الجاهلي فقط (ص١٤-١٧). وركز الكتاب في معظم الصفحات على التجارة العالمية وأهمية دراسة تاريخ الخليج العربي وتجارته ضمن النظام التجاري العالمي الممتد بين بلاد الرافدين وسوريا والهند، وأنها تشكّل منظومة واحدة (ص١٩).

ركز الفصل الأول على جغرافية شبه جزيرة قطر من حيث طبيعة الأرض وموقعها ومواردها الطبيعية، إضافةً إلى الحياة النباتية والحيوانية التي تأقلمت مع مناخ المنطقة،

(*) دار نشر جامعة قطر، الدوحة، (٢٠٢٠م)، ٢٣٦ صفحة.

والسكان الذين استوطنوا المنطقة على مدى العصور. كما ركز على محيط قطر الجغرافي في الخليج العربي والبحر المتوسط وشبه القارة الهندية في العصور القديمة والإسلامية والحديثة.

وتناول هذا الفصل الصراع الدولي والمخططات الإمبريالية لخلق صراعات في العالم العربي وتمييع القضية الفلسطينية، والتركيز على التوسُّع الغربي منذ القرن السادس عشر الميلادي، والهيمنة الغربية الحالية وفرضها من أمريكا وحلفائها الغربيّين، والعلاقات الاقتصادية للشرق الأدنى مع دول المحيط الهندي. وأكد أهمية المحيط الهندي في الصراعات القادمة، وأن لهذا المحيط أهمية كبرى للعرب، إذ تقع عليه معظم الدول العربية - (١٤) دولة (ص٧٧)، وأنه المحور المستقبلي في الصراع الدولي الذي سوف يطغى على منطقة حوض البحر المتوسط، وذلك بسبب عمق خطوط التجارة العالمية والثروات الهائلة والكثافة البشرية على سواحله والمناطق المحيطة به، ولقربه من الصين التي تسعى إلى السيطرة عليه. ويرى أن الجزيرة العربية بذراعيها المائيين البحر الأحمر والخليج العربي تعدُّ إحدى أهم مناطق الصراع القادم بسبب الموقع الإستراتيجي والموارد النفطية (ص٧٦-٧٧). وينطلق الكاتب من العمق التاريخي في الصلات بين الهند والجزيرة العربية في العصور القديمة والإسلامية في أهمية إحياء الوظيفة التجارية التي كانت سائدةً

قبل الاستعمار الغربي لهذه المناطق (ص٨٢-٨٤).

خصص الفصل الثاني لبحث الترابط القديم بين قطر ودول المحيط الهندي والشرق الأدنى، وأثر الخليج العربي في نشأة وحدة اقتصادية منذ العصور القديمة حتى القرن الثامن عشر الميلادي. ويستشهد في ذلك بالأسماء التي أطلقها السومريون: البحر الأعلى (البحر المتوسط)، والبحر الأسفل (الخليج العربي) في الربط بين هذه المناطق. وينصبُّ تركيز الفصل على أثر الخليج العربي في العلاقات الدولية في هذه العصور. وقد جعل الكاتب قطر نقطة التواصل الملاحي في الخليج العربي عبر مختلف العصور، ولا سيما العصور القديمة بين ديلمون ومجان وملوخا (ص١٠٨-١٠٩)، فتطرق للتبادل التجاري بين بلاد الرافدين وسوريا والهند مستشهدًا بالسجلات المسمارية من المدن السومرية وبابل وماري، ودور الخليج العربي وسيطًا في التجارة الدولية.

وفي الفصل الثالث تحدَّث عن موقع قطر على طرق التجارة بين ديلمون ومجان، وشهادات الكتابات الكلاسيكية منذ حملات الإسكندر المقدوني حتى العصر الروماني، مع التركيز على اسم قطر وحويلة في هذه الكتابات. وأشار إلى البضائع التجارية التي اشتهرت بها قطر في مصادر تاريخ المنطقة على مدى العصور، مثل مصايد اللؤلؤ وصناعة الثياب القطرية والرماح القطرية (الخطية) التي ينسبها إلى موقع قطر.

وركز الفصل الرابع على تأكيد عراقة اسم قطر في الكتابات اليونانية والرومانية، ولا سيما كتاب دليل الطواف حول البحر الإريثري، الذي كتبه أحد الملاحين في القرن الثاني الميلادي عن التجارة وموانئ البحر الأحمر والخليج العربي خلال الرحلات التجارية بين مصر والهند. ويرى الكاتب أن اسم قطر برز بعد زوال حضارة ديلمون في القرن السادس قبل الميلاد، وأنه امتدّ ليشمل مناطق من الساحل الشرقي للجزيرة العربية (ص٢١٥).

وذكر في الفصل الرابع أن أول اسم لقطر عند الكُتاب الكلاسيكيين ورد عند بلينيوس (ت: ٧٩م) باسم كاثري (Catharai) الكاثريين (١٦٤-١٦٥م)، ثم عند بطليموس الجغرافي (ت: ١٦٠م) باسم كاتارا (Catra). وقد ركز الكاتب على كتاب دليل الطواف حول البحر الإريثري (القرن ٢م) حيث يرد اسم كاتارا وحويلة، والأخيرة اسم لموقع حالي في شمال جزيرة قطر مقابل البحرين. كما يرى أن موقع الخط في قطر هو المصطلح الجغرافي الذي عُرفت به الأحساء وشرق الجزيرة العربية في العصر الإسلامي، وأن قطر أكبر مدنها كما يذكر ياقوت الحموي. ويشير الكتاب إلى أهمية "بيت قطراية" منذ القرن الرابع الميلادي بوصفه أحد أهم الأسقفيات التي برزت في المنطقة والتي امتد نفوذها ليشمل قطر والبحرين ومناطق على الساحلين العربي والفارسي على الخليج العربي (ص٢١٢-٢١٤).

الملحوظات العامة:

١- بالغ الكاتب في ربط السجلات المسمارية بكلمة قطر، التي اشتقها من كلمة أكادية تعني "دخان النحاس" (ص٢٢، ٢٠٢-٢٠٦). وهذا فيه مبالغة للفارق الزمني الشاسع الذي يمتد لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولا تسنده الأدلة المسمارية أو الأثرية التي لم تربطها بالمنطقة.

٢- يذكر أن الملك نابونيد أقام في تيماء من عام ٥٥٦-٥٣٣ ق.م، وهذا خطأ تاريخي، حيث إن الدولة البابلية سقطت عام ٥٣٩ ق. م، والصحيح أنه أقام في المدينة تقريبًا بين ٥٥٢-٥٤٢ ق. م.

٣- يلحظ إغفال مصطلح "الجزيرة العربية" في فصول الكتاب، والتركيز على بلاد الرافدين والبحر المتوسط، وهذا غير مبرَّر، خصوصًا أن الجزيرة العربية هي العمق التاريخي لشبه جزيرة قطر؟ فقطر هي جزءٌ من منظومة الجزيرة العربية وشرق الجزيرة تحديدًا، ومن ثَمّ فهي جزءٌ لا يتجزأ من منظومة المنطقة السياسية والاقتصادية، لكن قلة مواردها الطبيعية أدَّى إلى ضعفها وانضوائها تحت الكيانات السياسية التي شهدتها المنطقة عبر العصور.

٤- يُغفل الباحث ذكر اسم المملكة العربية السعودية في الكتاب، واستعمل اسم شرق الجزيرة العربية عند الاستشهاد بالأمثلة التاريخية، مع ذكره للدول الأخرى مثل: الكويت والبحرين والإمارات.

٥- عدم الاستشهاد بأي شواهد تاريخية من المواقع الأثرية في المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية خلال

مختلف العصور، في حين يستشهد بشواهد من الدول المجاورة، مثل أختام ملوخا من الكويت، والأوزان الهندية من البحرين، متناسيًا قرب المواقع التاريخية في المنطقة الشرقية إلى قطر، مثل: ثاج، وتاروت، والقطيف، والظهران، وغيرها، التي وُجدت فيها نماذج مشابهة من هذه القطع.

٦- لا يُعرّف الكلمة عند أول ذِكر لها، مثل ملوحا (Meluhha) المشار إليها عشرات المرات سابقًا (ص١١٠). وكذلك عدم الاستقرار على مصطلح واحد وتوحيد الأسماء المستخدمة في الكتاب. وعدم التقيد بالمصطلح الدارج بين الباحثين في كتابة الاسم، وهو ملوخا. فقد استعمل ثلاث صيغ في كتابتها: ملوحا، وملوخا، وملوحة (ص١١٠-١١١، ١٨١). وهذا ينطبق على اسم ديلمون التي يكتبها أحيانًا تيلمون.

٧- يكرر التعريف بأسماء الأماكن في مواضع كثيرة من الكتاب، مثل: مجان، عمان، والهند؛ وملوخا: الهند/ بلاد ما وراء النهر؛ وديلمون: الخليج/ الهند (ص١٢٠-١٢١)، والمنهج العلمي يقتضي التعريف في المرة الأولى فقط. والاضطراب في تحديد مواقعها كذلك، مثل تحديد مكان ملوخا أو مجان، إذ يذكر آراءً متناقضة، فأحيانًا في عُمان وأحيانًا في الهند (ص١١١-١١٢) مع مضي زمن طويل على إجماع معظم الباحثين على ربط مجان بعمان وملوخا بالهند.

٨- يلحظ على الكتاب التركيز على مدن بلاد الرافدين ودولها، مثل: أور، ولارسا، وآكاد، ونيبور، وآشور، وبابل، إضافةً إلى ممالك بلاد الشام ولا سيما مملكة ماري، أما الخليج فهو يقتصر على ديلمون ومجان بصورة عامة.

ويغفل الكيانات السياسية التي شهدتها المنطقة مثل مملكة الجرهاء التي لا يذكرها في الكتاب، مع تركيزه على تاريخ قطر في العصر الهللينستي، وقرب عاصمة الجرهاء من قطر، حيث تعد تاج المركز الرئيس لها.

٩- ذكر أن استعمال الجَمَل بدأ في العصر الهللينستي (ص١٥٦) أو القرن الخامس قبل الميلاد، في حين أنه يرتبط بالعصر الآشوري كما وثق في حوليات الملك شلمنصر الثالث عند صراعه مع العرب في معركة قرقر عام ٨٥٣ ق.م. أي القرن التاسع قبل الميلاد، عندما جند الملك جنديبو ألف عربي مع جمالهم للمعركة، إضافةً إلى الشواهد الكثيرة من حروب الآشوريين مع قبيلة قيدار ومملكة أدوماتو منذ القرن التاسع حتى السادس قبل الميلادي.

١٠- يذكر الكاتب أنه وفقًا لتقارير البعثة الفرنسية فإن موقع حويلة يعود إلى القرنيين ١٧ و١٨ الميلاديين، "ولم يُعثر على آثار تعود إلى العصور القديمة" (ص١٧٦)، ولكنه ينسب اسم الموقع إلى قبيلة هاجرت في الألف الأول قبل الميلاد من جنوب الجزيرة العربية مستشهدًا ببعض النقوش والكتابات الإسلامية عن انتشار القبيلة في الجزيرة العربية، وأن جماعات منها استوطنت قطر.

١١- تكرر الاستشهاد بالكُتّاب الكلاسيكيين مثل بلينيوس وبطليموس ودليل الطواف، والكُتّاب المسلمين مثل الحموي والبكري، والرحالة الأجانب مثل نيبور عند الحديث عن التجارة في الخليج، والتركيز على أن معظم التجارة كانت مع قطر. ولكن لا يمكن الجزم بصحة هذه النسبة في كثير

من النصوص، خصوصًا مع غياب الأدلة الأثرية القطرية التي تسند هذه الروايات، فكثير منها يطلق على المنطقة وليس خاصًّا بقطر.

١٢- يركز الكتاب على تأصيل اسم قطر في العصور القديمة، وأنه قديم جدًّا ويرقى إلى العصور الآكادية بربطه اسم قطر بكلمة دخان النحاس الآكادية، وكذلك ربط اسم حويلة بالاسم الحالي نفسه وأنه يعود إلى العصر الروماني، ويؤكد استمرارية هذه الأسماء منذ العصور القديمة حتى العصر الحالي، وليس لهذا ما يدعمه من الشواهد التي اعتمد عليها.

١٣- هناك خلط في الحقائق التاريخية المتعلقة بأثر قطر في تجارة الخليج العربي، مع عدم وجود آثار أو كتابات تؤكد ذلك، مثلما نجد عن ديلمون أو مواقعها الأثرية في تاروت والقطيف والظهران وغيرها من مواقع المنطقة الشرقية. وحتى دانيل بوتس الذي استشهد بكتابه كثيرًا يرى أنّ مراكز ديلمون في المرحلة الأولى امتدت من بقيق إلى تاروت قبل انتقال المركز الرئيس إلى البحرين في الألف الثاني قبل الميلاد.

١٤- فيما يخص العصور الحجرية، وخصوصًا العصر الحجري الحديث وحضارة العبيد (٥٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م)، فأقدم مواقعها في المنطقة الشرقية وليست في قطر، وكان بالإمكان موازنة معثورات واحة ييرين والدوسرية وعين قناص بالمواقع الأثرية في قطر من هذه الحقبة.

١٥- يرمز بيت قطراية إلى إقليم كان مركزه دارين وضَمَّ

مجموعة من الكنائس المحلية هي: دارين، وهجر، وسماهيح (المحرق)، والخط. وأول كنيسة تأسست في دارين عام ٤١٠م وعُقد فيها أول مجمع كنسي عام ٥٩٦م، والثاني عام ٦٧٦م لاختيار مندوب لتمثيل الكنيسة الشرقية، ومن ثم فلا يقتصر المصطلح على قطر الحالية، بل يشمل المنطقة.

١٦- لا يختلف الباحثون في أهمية موقع قطر في الملاحة البحرية في الخليج العربي، ولكن أن تكون مركزًا رئيسًا لتجارة النحاس وتصديره بين ديلمون ومجان وملوخا فليس ثمة ما يدعمه من الشواهد الأثرية.

١٧- أحد أهم الملحوظات هو تكرار المعلومات نفسها في مختلف فصول الكتاب، سواء من حيث الاستشهادات أو تحليل الأسماء والمعلومات أو التصورات المتعلقة بالتبادل التجاري بين قطر والعالم الخارجي، الذي فيه مبالغة كبيرة.

١٨- يلحظ أيضًا أن معظم مراجع الباحث واقتباساته اعتمدت على مراجع قديمة عدا القليل منها، ولا سيما ما يتعلق بالتنقيبات الأثرية في منطقة الخليج العربي ومحيطه.

١٩- لا يقدم الكتاب معلومات جديدة سواء عن تاريخ قطر القديم أو الخليج العربي، ولكن يحمد للأستاذ الدكتور محمد حرب فرازات التركيز على دراسة تاريخ المنطقة وتأكيد أهمية الخليج العربي وارتباطه بمحيطه العميق في مناطق الشرق الأدنى أولاً والمحيط الهندي ثانيًا، ومحاولة بيان تطور المخططات الغربية في السيطرة على الخليج والعالم العربي وعزله عن محيطه.